

الفصل الثالث

أثر الحضارة والترف في تشبيهات ابن وكيع التنيسى

عاش ابن وكيع التنيسى فى بيئة تنيس فى القرن الرابع الهجرى وعن بيئة تنيس قال المسعودى (تنيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنائناً ونخلاً وكرماً وشجراً وزارع، وكانت فىنا مجار على ارتفاع من الأرض، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض، وأحسن اتصالاً من جنانها وكرومها^(١)).

وقال صاحب تاريخ تنيس (ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون فى موضع آخر، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفاً وهى السلوى، النقع المملوح والنصطفير، الزرزور، الديسى، القمرى، الفاخطة، النواح... ويصل إلى تنيس طير كثير لا يعرف اسمه صغار وكبار... ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفاً وهى البورى، والبلمو، البرو، اللبب...^(٢)).

وشعر ابن وكيع - كما يقول أستاذنا الدكتور حسين نصار - أصدق صورة وأجملها لبيئة تنيس وكانت تنيس مدينة الربيع والخمر فكان ابنها شاعر الربيع والخمر^(٣). قال المقرئى فى خطه:

"وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب، يقال له (البدنة) لا يدخل فيه من الغزل سداه ولحمته غير أوقيتين وينسج باقية

(١) خطط المقرئى ١ : ٧٧ .

(٢) معجم البندان ياقوت ١ : ٨٨ .

(٣) ابن وكيع التنيسى شاعر الزهر والخمر : د/ حسين نصار ص ٥ .

بالذهب صناعة محكمة، لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينا. وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه، وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط^(١).

وكان ذلك سببا في غنى المدينة حتى اشتهرت بذلك.

وترجع شهرة تنيس إلى نسيج الثياب خاصة ثياب الشروب وهي ثياب لم يكن يصنع مثلها في أى بقعة من بقاع الدنيا.

وكان مما يصمم من الأثواب البوقلمون وهو من الحرير المتغير اللون وكان لحمته زاهية حتى قيل يبدو فيه ألوان متعددة فى كل ساعة من ساعات النهار.

وقال ابن النظافة والدمائة والغناء واللذة، وأكثرهم بيتون سكارى... وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة.

وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودفايات ومما تلبس النساء ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس، والأبيض منه نسيج بدمياط وما ينسج منه فى مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد، قيل إن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتروا له حله من كسوة السلطان، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراؤها^(٢).

(وبتنيس صناع مختصون بنسج ثياب السلطان وقد نسج عاملعمامة للسلطان فأمر له بخسمائة دينار ذهب، ويشهد ناصر خسرو بأنه رأى تلك العمامة وقال إنها تساوى أربعة آلاف دينار^(٣)).

(١) خطط المقرئى ١ - ١٧٧.

(٢) ناصر خسرو أنامه ترجمة الخشاب ص ٣٨ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٣) المصدر السابق ص ٣٨.

وقال الكندي " أنه كان ينسج بتيس ثياب الكتان والديبقي والمقصور والشفاف المعلم والطرز ويبلغ الثوب المقصور منها خمسمائة دينار^(١). وقد عاشت بمصر آنذاك خرافة تقول أنه قد أوفد سلطان الروم رسولا يعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ مدينة تيس، فلم يقبل السلطان وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون^(٢).

وكانت كسوة الكعبة تصنع بتيس، قال الفاكهي في كتاب أخبار مكة " رأيت كسوة من القباطي المصري مكتوباً عليها " (باسم الله وبركة من الله)، مما أمر به عبيد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله - محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامه س ٢٥٩ هـ^(٣).

ويقول الدكتور إبراهيم الدسوقي في كتابه تيم بن المعز شاعر الدولة الفاطمية ما نصه: " فقد اشتهرت مصر في كل عصوره بالنسيج، وتفوقت فيه تفوقاً عظيماً ولا سيما عصر الفاطميين الذين عنو بالنسيج عناية فائقة، فنشطت المناسج في كل ارجاء مصر كتيس والإسكندرية وشطا ودمياط وديبقي والفرما في الشمال، والبهنسا وديرة وأخميم وأسيوط في الجنوب.

والدليل على عظم هذه الصناعة مبالغة المؤرخين في ذكر الضرائب التي كانت تفرض عليها في أيام تيم نفسه، بل لقد كان لبعض الأمراء مناسج خاصة. ثم أنهم عرفوا باستخدام الخط في زخرفة النسيج وغيره ونحت تأثير التفوق الذي كان لمصر الفاطمية في صناعة المنسوجات ذكر عمارة اليمنى متحسراً تلك الكسا التي كان يوزعها الفاطميون، وذكر معها تيس في قوله:

(١) على مبارك - الخطط التوفيقية ج ١٠ ط الأميرية ١٣٠٥ هـ.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

وكسوة العام في الفصلين قد درست ورث منها جديد عندهم وبلى
ثم الطراز بتنيس التي عظمت منه الصلات لأهل الأرض والدول^(١)

هذا وقد كانت تقوم بتنيس صناعة السلاح المتخذ من الصلب وكانت
هذه الصناعة تبلغ مبلغ منسوجاتها^(٢).

فقد كانت تصنع بها آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرها، وقد قال
ناصر خسرو: أنه "رأى بمصر مقراضاً صنع في تنيس قيمته خمسة دنانير
مغربية يفتح إذا رفع مسماره ويقفل إذا نزل، ويؤكد ذلك ذكر ابن وكيع
لمباضع الجراح في قوله عن فصل الشتاء:

لا يستلذ جنبه المضاجعا كأنما أفرشته مباضعا

"روى ياقوت أن الأوزاعي رأى بشر بن مالك بتلبط في المعيشة فقال:
"أراك تطلب الرزق، إلا أدلك على أم متعيش قال وما أم متعيش - قال
تنيس - ما لزنها أقطع اليدين إلا ربتة، قال بشر: فلزنها فكسبت منها أربعة
آلاف.

"وناهيك عن مدينة خراجها في السنة أكثر من ثلاثمائة ألف دينار
وسبعمائة ألف درهم"^(٣).

وشعر ابن وكيع معرض فتى لطبيعة تنيس وما كان يقوم بها من
صناعات.

(١) د/ إبراهيم الدسوقي في جاد الرب "تميم بن المعز شاعر الدولة الفاطمية" مركز النشر
جامعة القاهرة ١٩٩١ ص ٢١١.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ترجمة أبو حديد ص ٣٠٥ م.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٧ ط السعادة.

(أ) ألفاظ المال والجواهر والمعادة النفيسة وما شابه ذلك فى تشبيهات ابن وكيع:

دارت بعض ألفاظ المال والجواهر والأحجار الكريمة وما شابه ذلك فى شعر ابن وكيع واستخدام الكثير منها فى تشبيهاته وفى ذلك دليل على مدى ما وصلت إليه الحياة فى مدينة تنيس من ترف ونعيم وتحضر وثراء، ومن المعروف أن لهذه الأشياء سلطاناً على الإنسان سواء أكان فقيراً أم غنياً. وقد أثر هذا الجانب على شاعرنا بدليل أنه استخدم هذه الألفاظ أكثر من استخدامه لألفاظ الكتابة برغم كونه شاعراً وناقداً ومعدوداً فى أهل العلم، وإن كانت بعض تشبيهاته فى هذا الجانب تقليدية مثل تشبيه الثنايا باللؤلؤ والغم بالعقيق والشارب بالزبرجد كقوله:

شارب من زبرجد وثنايا لؤلؤ فوقها فم من عقيق

وقوله:

انظر إلى زيتوننا فيه شفاء المهج
مخضرة زبرجد مسودة من شبيج

وقال:

أما ترى الليل قد ولت عساكره وأقبل الصبح فى جيش له لجب
وجد فى أثر الجوزاء يطلبها فى الجو ركض هلال دائم الطلب
كصولجان لجبين فى يدي ملك أدناه من كرة صيغت من الذهب

وهكذا يمضى ابن وكيع متأثراً بأستاذه ابن المعتز فى استعمال هذه الألفاظ الدالة على الترف والحضارة مستخدماً فى ذلك تشبيهات مركبة.

كقوله :

كواكب در في سماء زبرجد

كأن عناقيد الكروم وظلها

وقوله :

على خضر أغصان من الرى ميد
مداهن تبر ركبت فى زبرجد

ذوائب كستان تمايل فى الضحى
كأن اصفرار الزهر فوق اخضارها

وكذلك قوله :

على حسن أغصان من الدوح ميد
جلاجل تبر فى قباب زبرجد

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه
حكى وحكت أغصانه فى اخضارها

وقال :

يلوح على خضر الغصون الموائل
وقد زينت من عسجد بجلاجل

بدا مشمش الأشجار فيها كأنه
قباب بمخضر الرياحين غثيت

وقال عن الجلنار :

ضرامه يتوقد

وجلنار بهى

خضر من الرى ميد

بدا لنا فى غصون

فى قسبة من زبرجد

يحكى فصوص عقيق

وكما اختلط حديثه عن الأزهار بحديثه عن الجواهر والأحجار الكريمة
والعادن النفيسة اختلط حديثه عن الخمر كذلك بتلك الألفاظ التى تثير فى
نفس المتلقى عالماً خيالياً يحلو للفقير والغنى العيش فيه فنجده يقول عن الخمر

والحباب الذى يعلو الكأس عند مزج الخمر بالماء أو عند صب الخمر فى
الكأس:

حبابها جسمه لجين وجسمها شخصه نضار
كأنها تحته كميت عليه من فضة عذار

وقال: وكأنها والكأس ساطعة بها ذوب تحلل فى عقيق جارى

وقال كذلك:

حملت كفه إلى شفتيه كأسه والظلام مسرخی الإزار
فالتقى لؤلؤاً حباب وثغر وعقيقان من قم وعقار

وقال:

وخشخاش وأنا منه نفرى قميص زبرجد عن جسم در
كأقداح من البلور صيغت بأغشية من الديقاج خضر

وقال:

وقال: وكأنها فى الكئوس إذ جليت من عسجد رق لونه وصفا

وقال:

كأن الحباب المستدير بطوقها كواكب در فى سماء عقيق

وقال:

كأنها بأكف القوم إذ جليت ذوب من الذهب الإبريز محلول

وقال: كأنها تحت كميت عليه من فضة لجام

وقال:

وقد شاكلت فى أديم السماء نجوم الثريا للحظ المقل
دنانير أعطتكمما راحة سواد الخضاب بها قد نصل (١)

وقال:

وهز كتاناه ذوائبه ففيه جهد الصفات تقصير
كأنه بسط سندس بهج قد نثرت فوقه دنانير

(ب) واختلطت ألقاظ المال والجواهر والأحجاز الكريمة والمعادن
النفيسة عنده بوصف الطبيعة فنجده يذكر بعض الثمار كقوله:

وخشخاش كأنه نقرى قميص زبرجد عن جسم در
كأقداح من البلور صيغت بأغشية من الدياتج خضر
وعن النارج يقول:

فكأنما النارج فى أغصانه أكر خرطن من العقيق الأحمر
وكان زهر الباقلاء دراهم قد ضمخت أوساطها بالعنبر
وكانما الأترج أكؤوس عسجد ولها مقابض من حرير أخضر

ويقول فى وصف روضة:

وروضة تزهر من بنفسج كأنها أرض من الفيروزج
يضحك فيها زهر الشقيق كأنه مداهن العقسيق
مضمنات قطعاً من النسيج فأشرقت بين احمرار ودعج

(١) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر المصرى دار المعارف سنة

وقال عن البهار: ﴿

قد سمرت في قضب الزبرجد

كأنه مداهن من عسجد

وقال عن النارج:

يلوح في أفنان هاتيك الشجر

وانظر إلى النارج في بهجته

أو كعقيق خرطت منه أكبر

مثل دنانير نضار أحمر

وعن المشور:

يرنو إلى الناظر من حيث نظر

وانظر إلى المشور في ميدانه

أسلمه سلك نظام فانتثر

كجواهر مختلف ألوانه

وقال عن نور الباقلاء:

أوساطها بها من المسك أثر

كأنه مداهن من فضة

وقال:

فبذت لعين الناظر المتأمل

وعلا على الأشجار قطر سمائها

بمنظم من لؤلؤ ومفصل

تحكى قباب زبرجد قد كللت

وعن أزهار الربيع قال:

رأيت بها كل الملوك مختماً

جواهر لو قد طال فينا بقاؤها

وقال عن البسر:

زبرجد مثمر عقيقاً^(١)

كأنما خوصه عليه

(١) غرائب التنبهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر الأزدي المصري دار المعارف

سنة ١٩٨٣ ص ١١٢.

وقال عنه أيضاً: مكاحل من فضة قد طليت بالذهب
وتختلط ألفاظ المال والجواهر عند ابن وكيع بوصف الطبيعة العلوية،
فنجده يقول:

أما ترى الصبح بدا في ثوب ليل خلق
أما ترى جـوزاء ه كأنها في الأفق
منطقة من ذهب فوق قـبـاء أزرق

وقال: كأن عناقيد الكروم وظلها كواكب در في سماء زبرجد
وأحياناً نجده يذكر ألفاظ الجواهر مع ذكره للطبيعة العلوية في ثانيا ذكره
للخمر فنجده يقول:

كأن الحباب المستدير بطوقها كواكب در في سماء عقيق
ويقول ابن وكيع:

أما ترى أنجم الدياجي تزهـر في جوفها النقي
تحكى لنا لؤلؤاً ثـيـراً على بساط بنفسجى

(ج) ألفاظ الكتابة وما يتعلق بها:

قال ابن وكيع:

صعترى أرق من أرجل النمـل وأذكى من نفحة الزعفران
كسطور كسين نقطاً وشكلا من يدي كاتب ظريف البنان
وقال:

كـتـبـت وقرط شوقى قد عنانى وقد بعد اللقاء على التدانى

وقال:

خذيها بكفى فاتر الجفون على خليج أملس المتسون
أمواجه كعكن البطور ذى زرد كالزبرجد الموضون
كسلخ أيم أو كسلخ نون^(١)

(د) الفاظ الملابس والستائر والغائل والمفروشات والمنسوجات عموماً:

قال ابن وكيع عن الشتاء:

ملابس تعى الجليد حملاً كأن ما يحمل منها ثقلاً
وقال: تترك مبيض الثياب أرقطاً تحكى السعيدى لك المنقطاً
قال عن الربيع:

فيه ضروب للنبات الغض يحكى لباس الجند يوم العرض
وقال عن الروضة:

قد لبست غلالة زرقاء فكأيدت بلونها السماء
وقال عن الشمس فى السماء فى نهار الربيع:

رومية خلتها زرقاء فى الجيد منها درة بيضاء
وقال:

أما ترى الصبح بدا فى ثوب ليل خلق
أما ترى جـوزاء ه كأنها فى الأفق
منطقة من ذهب فوق قبـاء أزرق

(١) فى الرسالة المصرية: كنسيج ميم أو كنسيج نون والنون نون الكتابة أو الحوت العظيم.

وظاهره غلالة زعفران

وقال: غلالة باطن منه لجين

وقال:

تزهر في جوفها النقي
على بساط بنفسجي

أما ترى أنجم الدياتجي
تحكى لنا لؤلؤاً ثبيراً

وقال عن البصل الأخضر:

إذا رمسناه ناظر بفكره
بيض رطاب من بنات الروم

يحكى لعينيك اخضرار قشره
غلثلا خضراً على رسوم

وقال:

من لا يزين من الصحاب
فيما يليه من الثياب

لا تلفين مقارناً
فالثوب ينفذ سبغه

وقال:

من النجوم وسمط
فيه من النبر نقط

وللسماء وشح
تحكى بساطاً أزرقاً

من بعد ما قد كان مستوراً

وقال: وطلع هتكنا عنه أستاره

وقال:

من فوق جدول مائه المتفجر
أمراً فبين مقلص ومشمر

والسرو تشيه الرياح لواعباً
كالجنند في خضر الملابس حاولوا

وقال عن الصيف:

وتعلق الأذيال بالتراب
فيهن تخطيط كتخطيط الحبر

يلصق منه الجسم بالثياب
حتى تراها مثل منديل الغمر
وقال عن الكتان:

قد نثرت فوقه دنائير

كأنه بسط سندس بهج

وقال عن الصيف كذلك:

وأرخت من ليله أستاره

حتى إذا عنا انقضى نهاره

وقال عن ثمار الربيع:

يختال في غلائل مبيته

أما ترى أترجه ما أحسنه

وقال:

فيه من الصبح وخط

حتى إذا الليل بدا

حين تعرى وانكشط

وخلت ذا في جسم ذا

عن جسم زنجى تعط^(١)

غلالة فضيئة

وقال:

فيا حسنه من منظر حين هتكا

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه

سماع فشقت عنه ثوباً ممسكاً

حكى صدر خود من بنات الروم هزها

ويرى أستاذنا الدكتور/ إبراهيم الدسوقي جاد الرب أن في ديوان تميم

بن المعز ظاهرة تستوقف النظر، فقد ذهب في الغزل مذهباً طريفاً فنظم

(١) غرائب التنيهات على عجائب التشبيهات - على بن ظافر الأزدي المصري دار المعارف

سنة ١٩٨٣ سلسلة ذخائر العرب ٤٥ ص ٥٦.

مقطوعات غزلية على لسان الشقق والستائر والعصائب، كما نظم مقطوعات أخرى على لسان الجوارى وأمر بكتابتها على عصائبهن^(١).

ويقول الدكتور إبراهيم الدسوقي أيضًا "لقد عرف الأدب العربي شعرًا كان يكتب على النسيج وغيره ولكن هذا الشعر المكتوب كان يقال على لسان الشاعر المتغزل أو على لسان الجارية التي تزين بالنسيج أو تلبسه. أما تميم فلم يكفه أن يقلد هذين النوعين فأضاف نوعًا ثالثًا، وهو إنكاك النسيج وإجراء الغزل على لسانه ويستطرد الدكتور الدسوقي قائلاً "ولا أعرف لهذا النوع الثالث نظيرًا وكأنما هو انتحاء غزلية خاصة أملتها عليه البيئة المتفوقة في صناعة النسيج، الغنية بالشقق والستائر والغلائل والعصائب والمفروشات وغيرها من المنسوجات"^(٢). وهو بذلك يعتبر تميم بن المعز متوفقًا في وصفه لهذه المنسوجات على معاصره ابن وكيع التنيسي.

وقال عن جدول:

إذا صافحته راحة الريح خلتها بتكسيها إياه ثوبًا مغبنا

(هـ) ألفاظ الطعام في شعر ابن وكيع:

قال في قطعة من خروف:

خروف أظهر الشواء فيه تأنقه فليس له مدانى
لباطنه قميص من لجين تسربل فوقه بقميص تبر

(١) تميم بن المعز شاعر الدولة الفاطمية أ. د / إبراهيم الدسوقي جاد الرب - مركز النشر -

جامعة القاهرة سنة ١٩٩١ ص ٢١١.

(٢) المرجع السابق ص ٢١١.

وقال: إذا أردت أن تزار في غد

فلا تغال في الطعام واقصد

قال عن الرقاق:

ابعث فخذ عشرًا من الرقاق

تلدها نواظر الأحسداق

تكاد مما رق من خرشائها

تشف للأعين من صفائها

في صورة البودور

أو مثل جامات من البلور

وقال عن الحرف المشوى:

خروف أظهر الشواء فيه

تأنفه فليس له مدانى

غلالة باطن منه لجسين

وظاهره غلالة زعفران

وقال عن وجبة الرقاق:

فاعمد إلى مدور من البصل

فإنه أكبر أعوان العمل

يحكى لعينيك اخضرار قشره

إذا رمياه ناظر بفكره

غلاتلا خضرًا على رسوم

بيض رطاب من بنات الروم

حتى إذا أحكمته تقطيعًا

وقلت قد جودته صنيعةً

خلطه باللحم خلطًا جيدًا

ولم تزل تخلطه مسرددًا

حتى إذا أنت أجدت فعله

ثم جمعت في الرقاق شمله

صيرته يا ذا العلا السنيه

شابورة ليست لها سمية

ثمت أغل الشبرق المقشرا

من فوقه حتى تراه أحمرًا^(١)

مكتسبًا حلته الخمريه

من بعد ما عهدتها فضية

(١) الشبرق: نبات ثمرته شائكة صغيرة الحجم حمراء - ابن وكيع التنيسى شاعر الزهر

ومما ورد فى كتاب غرائب التنبهات على عجائب التشبهات لعلى بن
ظافر الأزدي المصرى قول ابن وكيع :

بدالنا الراى السدى . تلذ عيني منظره
فى قمص فضية أذبالها معصفه
عوضه القالى بها غلائلا مزعفوه
وافى به فمما رأته العين حتى لم تره

(و) ألفاظ تتعلق بالغناء والقيان والرقص وأدوات الموسيقى:

كان الغناء مرتبطاً بالحضارة والترف على مر العصور وكذلك ما يتعلق
بالغناء من أدوات الموسيقى والرقص ونجد ذلك مرسوماً ومسجلاً على الآثار
الفرعونية من معابد ومقابر ملكية . وعاش ابن وكيع فى مصر فى مدينة تنيس
التي عرفت بالحضارة والترف فى فترة ازدهار الدولة العباسية التي ازدهرت
فيها فنون الشعر والغناء وكل ما يتعلق بالفنون القولية من خطابة ونثر من
مختلف الأنماط وكذلك النقد الأدبى وغير ذلك من فنون القول وانعكس ذلك
كله أو انتقل إلى مصر وخاصة المناطق الحضارية فيها وقد عاصر ابن وكيع
هذه الفترة المزدهرة إذ توفى فى تنيس ٣٩٣ هـ أى أواخر القرن الرابع الهجرى
وكان لفن الغناء تأثير واضح على كثير من جوانب الحياة والمجتمع فى تلك
البيئات المتحضرة مثل بيئة تنيس ومن ثم دارت ألفاظ الغناء ومتعلقاته فى
أشعار الشعراء أبناء تلك البيئات المترفة وكثر الحديث عن القيان والمغنيات
وتسللت بعض الألفاظ المتعلقة بالموسيقى والغناء إلى شعر ابن وكيع وبالتالي
إلى بعض تشبيهاته مما يدل على تأثره بها فقد ذكر الطرب فى قوله :

طربت نفسي إليه وإلى طيب اقترابه

طرب الشيخ إذا ذكر أيام شبابه

وقال:

مع مسمع حلفت له أوتاره أن لا تنافر رنة المزمارة
فطن يحرك كل عضو ساكن تحريكه لسواكن الأوتار

وقال عن الربيع:

فيه نطل الطير في ترنم غناؤها ذو عجمة لا يفهمه
حاذقة باللحن لم تعلم سامعه وهو على ذا يغرمه
من كل دبسى له رنين وكل قممى له حنين

وقال:

وانظر إلى الأطيوار في أرجائه كأنها تصفر في رياضها سرب
إذا دعا الثاكل منها وصفير قيان فوق بسط من حبر

وقال:

وجاء فصل الربيع ملتمساً أن ينطق البم فيه والزبر^(١)

وعن الربيع قال:

وتغردت أطيواره فحككت لنا من كل صافية الصفير إذا دعت
نعمات معبد في الثقل الأول أغنتك عن صنح هناك وجلجل

(١) البم: الوتر من أوتار المزهر، الزبر: الوتر الرقيق من أوتار المزهر ص ١٢٧ نقلا عن

كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات.

وعن استمتاعه بالغناء قال مقسماً:

وسماع مستطاب جاء فى لفظ مصيب
ما سوى الراح لداء ال هم عندى من طيب

وقال:

شدو إذا الحلماء زار حلومهم باعوا بطيب السخف كل وقار
والشدو أحسنه الذى لم يستمع إلا أطار العقل كل مطار

وقال:

واشرب عقاراً طال فينا كونها يصفر من خوف المزاج لونها
من كف ظبى من بنى النصرارى ألبابها فى حسنه حيارى
إذا بدا جماله لذى النظر قال تعالى ما هذا بشر
تزيته أحشاء كشح طاوية وسره محشوة بالغالية
لا سيما مع مسمع وزامر قد سلما من وحشة التنافر

وقال:

لا لائماً يعذلنى فى طربى حسبك قد أكثرت من هذا الهذر

وقال:

أسنى الأمانى كلها وأجل منها ما ينال
كأس ومسمعة وإخ وإن تحادتهم ومال

وقال:

وعندنا شادان غرير
للحسن قدامه جيوش
يخف في حبه التصابي
ذا العيش فأفطن له وبادر
وانعم فعام السرور عندي
وقال:

وإن أحببت مسمعه أتتنا
تطلق هم سامعها ثلاثاً
محذفة بأصناف الأغاني
بتحرك المثالث والمثاني

(ز) الفاظ تتعلق بالعطور وأدوات الزينة:

قال: ابن وكيع:

وطلع هتكنا عنه أستاره
كأنه لما بدا ضساحكاً
درج من الصندل قد أودعت
وقال:

كأن آذربونها
سحيق مسك مودع
أسوده وأحمرة
في خرق معصفرة

وقال:

فاشرب معتقة كأن نسيمها
مسك تضوعه يد العطار

وقال: خليلي ما للآس يعبق نشره
وقال: وكأن زهر الباقلاء دراهم
إذا هب أنفاس الرياح العواطر
قد ضمخت أوساطها بالعنبر
وقال عن روضة:

يضحك فيها زهر الشقيق
كأنه مداهن العقيق

وقال عن البهار:

وارم بعينيك إلى النهار
كأنه مداهن من عسجد
فإنه من أحسن الأنوار
قد سمرت في قضب الزبرجد
وقال عن نور الباقلاء:

كأنه مداهن من فضة
أوساطها بها من المسك أثر

وقال: واجو في حلة ممسكة
قد طررتها البروق بالذهب

وقال:

شقيقة جئاتك من روضة
سوادها في صبغ محمرها
يقصر عنها كل مشموم
كشامة في خد ملطوم
وقال عن نور الكتان:

كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها
مداهن تبر ركبت في زبرجد

وقال مقسماً: ومضحك منك لأولوى
ممتزج مسكه بخمر

وقال: فاسقني من قهوة مسكية
في رياض عنبرك النفس

وقال: خلع الغمام على اخضرار سمائه
خلعاً فيبين ممسك ومصنديل

وقال: صعترى أرق من أجل النم
ل وأذكي من نفحة الزعفران

(ح) ألفاظ بعض أدوات الزينة:

قال ابن وكيع:

أما ترى النخل طارحاً بلحاً جاء بشيراً بدولة الرطب
كأنه والعيون تنظره إذا بدا زهره على القضب
مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرءوس بالذهب

وقال عن نور الكتان:

كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها مداهن تبر ركبت في زبرجد
وقال عن الخمر: كأنها تحته كमित عليه من فضة عذار
وقال: رومية حلتها زرقاء في الجيد منها درة بيضاء

وقال عن طيور الربيع:

تبصره منه على الحيزوم كمثل عقد سبج منظوم
وقال عن روضة:

يضحك فيها زهر الشقيق كأنه مداهن العقيق
وقال عن البهار:

كأنه مداهن من عسجد قد سمرت في قضب الزبرجد
وقال:

وانظر إلى المشور في ميدانه يرنو إلى الناظر من حيث نظر
كجواهر مختلف ألوانه أسلمه سلك نظام فانتثر

وعن نور الباقلاء :

كأنه مداهن من فضة
كأنها سواف من خرد
وقال :

أما ترى أنجم الدياتجى
تحكى لنا لؤلؤاً ثبيراً
تزهى فى جوفها النقى
على بساط بنفسجى
وقال :

كأن أوراق زهر للباقلاء بهية
خواتم من لجين فصوصها حبشية
وقال :

وقد حكى غديره
مرآة جال ماهر
فى زهره حين اغتمط (١)
موضوعة فوق نمط
وقال :

لى نحو ورد الباقلاء
كأنما مبيضه
إدمان لحظ ولهج
يلوح فى ذلك الدعج
خواتم من فضة
فياها فصوص من سبج
وقال :

وللسماء وشح
تحكى بساطاً أزرقاً
من النجوم وسمط
فيه من البير نقط

(١) اغتمط : اختفى ، والنمط : البساط غرائب التبيهات - ص ٦٧ .

على عدد معقول من حروف المد حسنت موسيقاه لأن تجاوز الحد المعقول والمبالغة فى عددها تفسد الموسيقى .

ثانياً: تكرار الحرف الواحد من الحروف الصراح عدة مرات فى البيت بشرط ألا يجاوز هذا التكرار النسبة المعقولة أيضاً ولهذا علق صاحب بن عباد على المتنبي حين قال :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

بقوله : " ما له قلقل الله أحشاه وهذه القافات الباردة(١) " . ولا يكتسب التكرار فى الإيقاع صفته الجمالية إلا بإحباط التوقع الذى يخلقه التكرار(٢) .

* واختص الشعراء اليونان الملحمة بوزن خاص هو السداسى الذى لا يستخدم فى غير الملحمة . أما الشعراء العرب فكانوا يفاضلون بين البحور وبعضها البعض وفقاً للموضوع أو الغرض الذى يتناوله الشاعر ، ففضلوا استخدام بعض البحور فى الموضوعات الجليلة كالفخر والحماسة والرثاء وفضلوا بحوراً أخرى فى الموضوعات الجميلة كوصف الطبيعة والغزل مما يوجب عمل إحصاء للبحور التى استخدمها الشاعر لئلا يكثر استخدامها وأياً أقل عنده وأى البحور أهملها الشاعر فيما بين أيدينا من شعره . ومن الطريف أن الإحصاء أظهرت لنا قلة استخدامه لبحر المنسرح وهو بحر مقترن بالغناء منذ العصر الأموى وهذا البحر جميل الإيقاع إلا أنه متعذر جداً على الشعراء حتى أن كثيراً من الدواوين القديمة والحديثة يكاد يخلوا منه .

استعمل الشاعر البحور المجزوءة فى ثمانية وعشرين موضعاً واستعماله للمجزئات سعتبر دلالة على الذوق المتحضر لأنها يسهل غناؤها .

(١) مقالة لأحمد سويلم مجلة القاهرة العدد ١٠٩ (١٥ أكتوبر ١٩٩٠)

(٢) مجلة العربى فبراير ٢٠٠١ م العدد رقم ٥٠٧ = مقالة د/ جابر عصفور [تكرار التشبيه]

- استخدم الشاعر بحر البسيط فى أربعة عشر موضعاً .

ورد مها (مخلع البسيط) فى ثمانية مواضع وهو بحر اتخذه الأدب الشعبى قالباً موسيقىً له وخاصة (الموال) لثراء هذا البحر بإمكانات المد وإيقاعاته الفضفاضة وهو بحر استعمله الشعراء فى الشع العمودى بكثرة فى أشعارهم ويأتى هذا البحر فى المرتبة الثانية لشيوع استعماله عندهم بعد بحر الطويل .

- وبالنسبة لبحر الوافر نجد أن الشاعر كان مقلاً من استخدامه فقد استخدمه خمس مرات منها حالة واحدة فيها مجزوءاً ويمكن إرجاع ذلك إلى ثقافة الشاعر الناقد ابن وكيع الذى أسهم بكتاى (المنصف) فى النقد الأدبى ذلك الكتاب الذى بين سعة ثقافة ابن وكيع حيث رد سرقات المتنبى إلى مصادرهما فى التراث الشعرى وربما قلل من هذا البحر كان ذلك تأثراً بالشعراء القدامى من العصر الجاهلى وأولئك الذين أعجب الشاعر بهم أياً أعجاب فتابعهم فى قلة استخدامهم لهذا البحر كما فعل فى قلة استخدام بحر المنسرح فقد استخدمه ست مرات ويؤكد تأثره بالجاهلين قوله فى كتابه (المنصف فى الدلالة على سرقات المتنبى) "إن مرور الأيام أنفد الكلام فلم يبق المتقدم للمتأخر فضلاً إلا سبق إليه واستولى عليه" ويعتبر ابن وكيع من أسبق النقاد إلى إدخال السرقات ضمن البديع فقد قدم لكتابه بمقدمة طويلة عن البديع تستغرق تسعاً وثلاثين صفحة فى المخطوط^(١) .

- بحر الطويل فقد استخدمه الشاعر اثنتى عشرة مرة :

وقيل "يسمى الطويل طويلاً، لأنه أتم البحور استعمالاً، إذا لا يدخله جزء ولا شطر ولا نهك، وقيل لأنه أكثر البحور حروفاً لأنه إذا صرع فكانت

(١) كتاب تاريخ النقد العربى فى القرن الرابع الهجرى د/ محمد زغلول سلام دار المعارف

بمصر سنة ١٩٦٤ م . ص ٢١٨ .

عروضه الأولى مع ضربها الأول (مفاعيلن) تامة غير مقبوضة - كان ثمانية وأربعين حرفاً، ولا نظير له في ذلك " ولعل بحر الطويل يكون أشهر بحور الشعر قاطبة عند شعراء العصر الجاهلي والشعر العمودي عامة وقد نوه به ذلك صفي الدين الحلبي حين ذكره منبهاً إلى اسمه وأجزائه في قوله:

طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

- أما بحر الرجز فقد قل في شعر القدماء في العصر الجاهلي باستثناء الحماسيات أثناء الحروب وكثر في العصر الأموي لسهولة وعذوبته ولا تساعه وسماحة بالتصرف الكثير فيه لأنه يجوز حذف حرفين من كل جزء فيه فتصبح (مستعلن) (متعلن)، ولكثرة دخول العلل والزحافات والشطر والنهك فيه، ولذلك سمي (حمار الشعراء) ولعل هذا البحر حمار الشعراء الجدد أيضاً فهو وسيلتهم المفضلة لنظم شعرهم الحر ولذلك نجد ابن وكيع كثيراً من استخدامه حيث استخدمه تاماً ثمانى مرات ومجزوئاً إحدى عشرة مرة وبذلك يكون بحر الرجز من أكثر البحور شيوعاً عند الشاعر.

وإذا استعمل الشاعر البحر مجزئاً فإنه يناسب الغناء أيا كان ذلك البحر.

- أما بحر الكامل فقد استخدمه الشاعر ست عشرة مرة تاماً وخمس مرات مجزئاً وهو بحر يسير جدا ومحجب لدى الشعراء البادئون ومنه معلقة عترة بن شداد.

وسمي هذا البحر بالكامل لكمالته في الحركات فالبيت التام منه على ثلاثين حركة وقيل لأن أضربه زادت عن أضرب غيره من البحور فهي تسعة أضرب.

- أما بحر السريع فقد استعمله الشاعر ثمانى مرات.

- وبحر المجتث ورد عند الشاعر سبع مرات.

وهو بحر قصير يسير على الشعراء .

- أما بحر الخفيف فقد ورد عند الشاعر عشر مرات تاماً وثلاث مرات مجزوءاً وهو من أكثر البحور ذوات التفعيلتين استعمالاً في الشعر الجاهلي والعمودي بصفة عامة بعد بحر البسيط .

- أما بحر المتقارب فقد استعمله الشاعر مرة واحدة تاماً وأربع مرات مجزوءاً وسمى هذا البحر بالمتقارب لتقارب أسبابه من أوتاده لأن بين كل وتدين فيه سبباً، أو لتقارب أجزائه أى تماثلها أو لعدم طولها، لأنها خماسية وقد استعمله الشعراء في العصر الجاهلي كثيراً وفي الشعر العمودي عموماً .

- أما بحر الرمل فقد استعمله الشاعر تاماً ثلاث مرات ومجزوءاً ثلاث مرات أيضاً؛ وقد سمي بالرمل لسرعة النطق به لتتابع (فاعلاتن) فيه لأن الرمل يطلق في اللغة على نوع من السير السريع، وقيل (سمى كذلك تشبيهاً له برمل الحصير، أى نسجه لانتظام أسبابه من أوتاده)^(١) وهو بحر محبب لدى الشعراء تاماً أو مجزوءاً .

أما البحور التي أهملها الشاعر فيما بين أيدينا من شعره فهي :

١ - المتدارك . ٢ - الهزج . ٣ - المديد .

٤ - المضارع . ٥ - المقتضب .

- والمتدارك بحر ينسب لأبي الحسن الأخفش

المشهور باسم الأخفش الأوسط فهو غير موجود فيما استخرجه الخليل

من بحور الشعر .

- وبحر المديد صعب جداً على الشعراء وربما خلت منه دواوين بعضهم

(١) العروض الجديد أوزان الشعر الحر وقوافيه د/ محمد علي السمان دار المعارف ١٩٨٣ ص

وإذا تجاسر شاعر لا يحسه إحساساً كاملاً تأتي في قصيدته أبيات من بحر الخفيف هذا إذا كان البحر مكتمل التفعيلات وبإحصاء البحور التي وردت عند الشاعر تبين الآتى:

* جملة البحور المجزوءة بالإضافة إلى البحور التامة = ٢٨ + ٨٨ = ١١٦ ونسبة البحور المجزوءة المثوية = ١٣٧٩٣١٠٣ ، ٢٤٪ نسبة البحور التامة = ٨٦٢٠٦٨٩٧ ، ٧٥٪

أما البحور التي أهملها ابن وكيع في ما بين أيدينا من شعره فهي الآتى

- ١ - المديد .
- ٢ - الهزج .
- ٣ - المضارع .
- ٤ - المقتضب .
- ٥ - المتدارك .

نسبة البحور المهملة إلى المستعملة هي : ٥ من ١٦ بحراً ٣١ ، ٢٥٪ .

(ى) استخدام ابن وكيع للقوانى: هناك حروف مهملة عند الشاعر وهي:

ت - ث - خ - ذ - ز - ص - ض - ظ - غ - و وجملتها أحد عشر حرفاً أى أنه استعمل سبعة عشر حرفاً وأهمل أحد عشر حرف من جملة ثمانية وعشرين حرفاً .

هي حروف الهجاء: ومن المعروف أن حرف الروى هو الحرف الذى تبنى عليه القصيدة فيقال لامية أو دالية، وهناك حرفاً مستثناه هي (الألف والواو والياء والهاء) فإن قابلنا أحد هذه الحروف فى أواخر الأبيات فتعتبر القافية حسب الحرف الساكن قبلها، أى ننظر إلى آخر حرف إن كان واحداً مما سبق تتجاوزة إلى الذى قبله ونجعله رويًا كقول زهير .

صحبا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا وزواجه

فالقافية هي من آخر ساكن في البيت إلى أقرب متحرك يليه ساكن

لم يستعمل الشاعر جميع الحروف الأبجدية في قوافيه فقد ترك حروفاً منها الضاد والطاء والغين والواو وتم عمل إحصائية بهذه الحروف المهمة تديلاً لإحصائية بالحرف المستعملة.

والحروف التي تركها ابن وكيع ولم يستعملها في الروى حروف ثقيلة قليلة الاستعمال في الشعر العربي عموماً.

وابن وكيع كان يستعمل الحروف ذات القوى الفخم في الموضوعات الجليلة فهو على علم بالقوافي ووظيفتها في الشعر فهي ليست تكراراً صوتياً فحسب ولكنها تؤدي وظيفة عضوية في موسيقى القصيدة عنده يقول (يورى لوتمان) في كتابه (تحليل النص الشعري).

أن وقع القافية في نفسية المتلقى يرتبط بحظها من المباغته أو عدم التوقع وهذا يعنى أنها ذات طابع دلالي أكثر مما هي ذات طابع نطقى أو صوتى، وليس من الصعب الاقتناع بهذه الحقيقة إذا قارنا بين القوافي التي تعتمد على التكرار لفظاً ومعنى والقوافي التي تشترك لفظاً وتختلف معنى لأن التطابق الإيقاعى والصوتى فى الحالتين واحد غير أن اختلاف المعانى بل وانقطاع ما بينها فى حالة المشترك اللفظى، يجعل القافية تبدو أكثر غنى، أما فى حالة تكرار القوافي لفظاً فإنها تترك فى النفس انطباعاً ضئيلاً بل لا يكاد يعترف بها قوافي على الإطلاق^(١).

(١) تحليل النص الشعري لبنية القصيدة - يورى لوتمان، ترجمة د/ محمد فوح أحمد [دار

المعارف] ١٩٩٥ م ص ٩٢، ٩٣.